الفصل الأول

الطفل العدوانى واضطراب السلوك

يعتمد علماء النفس التحليلى أن انفعالات الطفل ماهى إلا ردود فعل عدوانية ترمى إلى إزالة الإحباط وتحقيق الإشباع. وهذه الأمور تترافق عاده بالصراع بين المشاعر الحب والكراهية إزاء الشخص الآخر الذى يمثل هنا صوره الأم عندما تلبى الام نداء الطفل فإن هذا الأخير يشعر بأن أمه شخص طيب.

أما عندما تتأخر عن تلبية حاجته أو تهدده أو تصرخ فى وجهه فإن صورتها تصبح سيئه. لذا فإن هناك منذ الطفولة صراعاً بين الحب والكراهية باتجاه شخص الأم. وكلما ترسخت صورة الأم الطيبة فى ذهن الطفل، أصبح واثقاً من نفسه وقادراً على احتمال الإحباط لأنه يصبح على يقين على أن أمه سوف تأتى إليه دون شك لمساعدته ورعايته.

إن مسألة العدوانية عند الطفل مرتبطه إذن بعلاقة الطفل مع أمه وما يطرأ على هذه العلاقة من إحباط وإشكالات تثير لديه الغضب والعدوانية. إن الأم الطيبة تجسد هنا الشعور بالطمأنينة والثقه وتعطى الدعم اللازم لوجود الطفل وتساعده على التكيف مع البيئه وعندماتضطرب هذه العلاقة فإن الطفل يرود على الإحباط والإحباط بالغضب والعدوانية وتنمو لديه أفكار خيالية تتخللها صور عدوانية مختلفة حسب ما تعتقد (ميلانى كلاين). على سبيل المثال يذكر سيجل Segel من خلال تحليله النفسى لحالة طفل صغير، أن تخيلاتة العدوانية كانت تقضى بعض ثدى الأم وتمزيقه (الأم السيئة والإحباط).

إن مسألة الإحباط أثارت اهتمام علماء النفس منذ سنوات عديدة وذهبوا إلى القول بأن الاحباط يؤدى إلى العدوانية، فالشخص يريد أن يثأر لنفسه ويعبر عن ألمه النفسى، ومن جهه أخرى، يعتقد (فرويد) أن العدوانية تلازم السلوك البشرى وهى ترتبط بغزيرة التدمير والموت، وهذه الغزيره تؤدى فى النهاية على تدمير الذات والعالم.

العدوانية ظاهرة طبيعية:

إن العدوانية عند الطفل دافع طبيعى وإيجابى وهى ترمى إلى الدفاع عن الذات والسيطرة على القلق والثأر من إهمال الآخرين. فتظهر العدوانية بين أفراد الجنس نفسه ومن خلال الرغبة فى السيطرة والتنافس والتسلط، وهنا يظهر تفوق الذكر على الأنثى (التفوق البيولوجى والاجتماعى) من حيث السلوك العدوانى والسيطرة.

وإذ كانت العدوانية صفة طبيعية فى سلوك الطفل فإن هذه المسأله لا تزال غامضة حتى الآن فى عقول العديد من الأهل والمربين الذين يحاولون بشتى الوسائل قمع الدوافع العدوانية عند الطفل باعتبارها ظاهرة سلبية.

ولذلك تبدو العدوانية فى المجتمعات المعاصرة كبيرة وخطيرة ليس لأن هناك أناس عدوانيين بل لأن المجتمع لا يسمح للأفراد بالتعبير عن عدوانيتهم بشكل طبيعى وسليم، إذ يلاحظ أن نسبة الاكتئاب

ترتفع أكثر عند الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يعبروا عن انفعالاتهم ومشاعرهم العدوانية إزاء وضعية من الإحباط والهوان.

العديد من مرضى الاكتئاب يشعرون بالذنب ولوم النفس والانهزامية وبعدم القدرة على رد الظلم والعدوان وهنا يرتد العدوان إلى الداخل ويصبح سجناً للذات.

إن التعبير عن العدوانية شئ طبيعى وضرورى فى حياة الطفل، وهو يعبر عن عدوانيته بطرق مختلفة: المبارزة مع الآخرين العراك، الغيرة بين الاخوة، الصراخ، الهجوم، الألعاب الحربية، تحطيم بعض الأشياء، لعبة الحرامى والبوليس... إلخ.

ومن خلال اللعب الرمزى يحاول الطفل أن يتغلب على شعوره بالعجز والخوف وأن يسيطر على الواقع والعالم الخارجى. هذا النوع من اللعب ضرورى جداً لتنمية الثقة بالنفس والقدرة على المواجهة وغالبا ما يستعمل العلاج النفسى عن طريق اللعب الرمزى لمساعدة الطفل على التخلص من أزماتة النفسية.

لقد لاحظنا بوضوح أثناء الحرب فى لبنان كيف كان الأطفال يلعبون لعبه الحرب ويتبارزون بالأسلحه والرشاشات التى يشترونها من محلات الألعاب أو التى يصنعونها من الأخشاب. ونشير هنا إلى أن الألعاب الحربيه ظاهرة إيجابية وصحية ووسيلة لتفريغ العدوانية عند الطفل بعكس ما يعتقد الأهل والمربون.

إن الأطفال الذين يشعرون بالحب والطمأنينة داخل المنزل يستطيعون تحمل الإحباط ويسيطرون على الخوف لأنهم يستمدون قوتهم من ثبات المواقف والقيم ووضوح الرسالة التى يرسلها لهم الأبوان.

لقد دلت التجارب على أن الأهل الذين اعتمدوا على مبدأ التراخى والتردد والتسامح الدائم والإهمال لم يحصلوا إلا على نتائج سلبية، بعكس الأهل الذين يعتمدون على الحزم والحوار ووضوح الرسالة والمواقف.

إن التناقض فى مواقف الأهل وردود فعلهم تخلق حالة من البلبلة والضياع عند الطفل بحيث لا يستطيع التمييز بين الخير و الشر والحسن والقبيح..

والجميع يذكر قصه ليلى والذئب، هذه القصة التى ترمز إلى صورة الأهل المتناقضة، هناك الصوره الإيجابية (الحماية والحب) التى تحولت إلى كابوس وخوف (الذئب حل مكان الجدة أو الأم).

أن العدوانية عند الطفل هى إذن ظاهرة طبيعية قد تخدم فى بعض الأحيان متطلبات النمو، وتساعد على التخلص من مشاعر الخوف والسيطرة، على الواقع.

حتى العدوانية بين الأخوة ظاهرة طبيعية تظهر فى بعض مراحل النمو، وغالباً ما يلاحظ الأهل كيف أصبح طفلهم عدوانيا بعد أن أنجبت أمه أخاً أو أختاً له.

فالطفل يعتقد هنا أنه يستطيع أن يتحكم بالظروف ويسيطر عليها، فيلجأ إلى العدوانية لتغير الظروف باتجاة مصلحتة وبخاصة عندما يشعر بأنه لم يعد الشخص المحورى داخل المنزل بل هناك شخص آخر قد انتزع منه الحب والاهتمام .

العدوانية هنا وسيلة لإزالة الشخص المنافس من الوجود، وهذه الوسيلة يستعملها أيضا الراشدون ولكن بأشكال مختلفة: المنافسة فى العمل والتجارة والسياسة المؤامرة والخداع.

وخلاصة القول: إن العدوانية عند الطفل وبالأخص قبل السابعة من العمر هى ظاهرة طبيعية، غير أن استمرارها بعد السابعة وبشكل ثابت وبارز ينذر باضطراب المسلك والجذوع كما سنرى فى العدوانية ظاهرة مرضية.

العدوانية ظاهرة مرضية:

عندما تتخطى العدوانية حدودها المعقولة عندئذ تصبح انحرافاً سلوكيا أو ظاهرة مرضية تستدعى العلاج.

وهنا يتحدث أطباء التحليل النفسى عن اضطراب السلوك عند الطفل والجنوح عند المراهق. ويبدو أن هذا الاضطراب شائع عند عدد من الأولاد الذين يترددون بصحبة أهليهم إلى العيادات النفسية أو إلى مستشفيات الطب النفسى، وقد بينت على سبيل المثال أن من الأشخاص الموقوفين والمتهمين بأعمال السرقة والعنف والإجرام، هناك 50٪ ممن تقل أعمارهم عن الخامسه عشره مقابل 40٪ ممن تتراوح اعمارهم ما بين 15 و 18 سنه.

إذن فالعدوانية المرضية تعنى أن الطفل يلجأ إلى اعتماد الكذب والسرقة ويعتدى على الآخرين ويشعل الحرائق ويشترك فى أعمال العنف ويحطم مقتنيات الغير ويعذب الحيوان ويدخن السجائر فى سن مبكره ولا يكترث بمشاعر الآخرين.

إن اضطراب السلوك تختلف نسبتة حسب الجنس والمجتمع ، هناك 9٪ للذكور مقابل 2٪ للإناث.

العوارض:

تشير العوارض التالية إلى اضطراب السلوك حسب ما جاءت به جمعية الطب النفسى الأمريكية، ويجب أن تدوم هذه العوارض سته أشهر على الأقل وأن يكون هناك ثلاث عوارض على الأقل بارزه فى المصاب باضطراب السلوك وهى كالآتى:

- ان يكون الطفل قد ارتكب السرقة أكثر من مرة.

- أن يكذب الطفل باستمرار.
- أن يشترك الطفل فى إشعال الحرائق.
- أن يتغيب الطفل عن المدرسة دون أى سبب.
- أن يحطم الطفل مقتنيات الغير.
- أن يؤذى الحيوان ويعذبه.
- غالبا الطفل المصاب باضطراب السلوك يكون البادئ فى الحراك الجسدى.
- أن يكون قاسيا مع الآخرين ويؤذيهم جسدياً.

وهنا لابد من الإشارة إلى وجود نمطين من اضطراب السلوك:

النمط الجماعى والنمط الفردى؛ فى النمط الجماعى ينضم الولد إلى رفاقة ويلتزم بمعايير الجماعة وفى هذه الحالة يكون السلوك عدوانياً ومؤذياً وقد لا يكون كذلك.

ويبدو أن النوع الثانى (الفردى) هو الأكثر خطراً لأن الولد هنا لا يلتزم بمعايير الفريق. وإنما يتبع غرائزه وأهواءه المنحرفة.

وخلاصة القول:

أكدت الدراسات و الأبحاث النفسية لدى علماء التحليل النفسى (فارنجتون 1990 ولوبر 1991 وفارغاسون1992) أن الطفل الذى تظهر لديه العدوانية بشكل بارز ومستمر وفى المراحل المختلفه للنمو سوف يكون فى أعداد الأشخاص المضطربين والعدوانين والمضادين للمجتمع.

أما العدوانية المؤقتة والعابرة والمعقولة التى تظهر قبل الساعه من العمر فهى تختلف تماماً عن العدوانية المنحرفة أو المرضية. ولذلك فاضطراب السلوك الذى يبدأ مبكراً وبالأخص ما بين 7- 10 سنوات يؤدى غالباً إلى الجنوح فى المراهقة وبالتحديد فى الثالثة عشرة من العمر.

أسباب اضطراب السلوك:

لا شك أن أسباب اضطراب السلوك كثيرة ومتعددة يمكن تخليصها فيما يلى:-

1ـ الجنس:

تدل الدراسات والملاحظات العامه على أن الذكر هو أكثر عدوانية وانحرافاً من الأنثى، ويرد العلماء ذلك إلى الفروقات البيولوجيه والهرمونية والاجتماعية،

فالقوه العضليه والهرمون الذكرى يعتبران من العوامل التى تدفع إلى السيطرة والتفوق تضاف إلى ذلك العوامل الاجتماعية التى تولى الذكر اهتماماً أكبر من المراة فى مختلف الحياة والميادين.

أما بالنسبة للأطفال العدوانيين فقد تبين أن هؤلاء يمتلكون نسبة مرتفعة من الهرمونات الذكريه بالمقارنه مع أقرانهم من الأطفال الأسوياء.

2ـ العائلة:

لا شك أن الأسرة تلعب دوراً بارزاً فى تشكيل شخصية الطفل وتحديد مستقبله. إن الأطفال العدوانيين يعيشون فى عائلات يسودها الشجار والاضطراب.

3ـ دور التليفزيون:

يعتقد البعض أن أفلام العنف التى يشاهدها الأطفال فى التليفزيون تدفع بهم إلى تقليد ما يشاهدونه وبذلك يصبح الطفل عدوانيا.

وهذه فرضية تمت دراستها عن طريق الأبحاث الميدانية، وقد توصل العلماء إلى القول إن أفلام العنف تؤثر سلباً فى سلوك الطفل.

ويبدو أن التليفزيون قد أفسد أجيالا فى مختلف المجتمعات مع العلم بأن الأهل يتركون طفلهم يشاهد ما يريد من أفلام حتى يتخلصوا من ضغوطه وطلباته.

لقد تبين أن الأطفال الذين يشاهدون أكثر من سواهم أفلام العنف يصبحون أكثر عدوانية، وهذه العدوانية تستمر فى السلوك حتى المراهقة وسن الرشد.

وهذا يعنى أن الطفل يقلد النماذج السلوكية التى يراها باستمرار، فإذا كانت هذه النماذج عدوانية وسلبية فإن السلوك يصبح عدوانيا. هنا تدخل نظرية التعلم عن طريق الملاحظة والتقليد وهى نظرية

مهمه فى علم النفس والتربية لأنها تفسر الكثير من سلوكيات الصغار والكبار. ولذلك تقول الشرطة الأمريكية أنها وجدت عدداً من جرائم القتل ارتكبها أشخاص بنفس الطريقة التى شاهدوها فى الأفلام.

4ـ العامل البيولجى:

لم يلاحظ الباحثون أن هناك فروقات بارزه من حيث التكوين البدنى بين الأطفال العدوانيين والأطفال العاديين.

أما الفرق فكان بارزاً فى مستوى الاندفاعية والسرعة وفى ردود الفعل والبطء فى ضربات القلب والانخفاض الخفيف فى مستوى الذكاء، إلا أن الدراسات فى هذه المسألة غير كافية ومحدودة. ومن ذلك ينتهى علماء النفس إلى أن العامل الوراثى والعامل الاجتماعى يتفاعلان باستمرار ويؤديان إلى اضطراب السلوك.

5ـ العامل الاجتماعى:

لقد تبين أن الحروب تؤدى إلى ارتفاع فى نسبه العدوانية وأعمال العنف عند العسكريين والمدنيين بما فيهم الأطفال، على سبيل المثال تبين أن 30٪ من المسجونين فى الولايات المتحدة كانوا من المقاتلين فى فيتنام وقد تمت إدانتهم نتيجه لأعمال السرقه والعنف والإجرام التى قاموا بها. من جهة أخرى، تبين أن الأطفال اللبنانين الذين تعرضوا

للصدمة والتهجير، قد ارتفعت لديهم نسبه العدوانية والرسوب الدراسى وسوء التكيف والجنوح.

أما فى الكويت فقد أظهرت الإحصاءات الأولية أن نسبة العنف والجريمة قد ارتفعت فى صفوف الشباب بعد الغزو العراقى الغاشم لدولة الكويت. قبل الغزو كان الكويتيون يشكلون 47٪ من إجمإلى أعمال العنف، إذ كانت معظم الجرائم التى ارتكتب من أشخاص غير كويتين.

أما بعد الغزو فإن نسبه الكويتين قدر ارتفعت بشكل ملحوظ وهى تتراوح ما بين 70٪- 80٪ من مجمل الحالات، وهنا تظهر الآثار السيئة النفسية للعدوان العراقى، بالإضافه إلى ضحايا التعذيب والأطفال الذين تعرضوا لقلق ما بعد الصدمه.

كيفية علاج اضطراب السلوك:

إن علاج الاضطراب عند الأطفال لا يزال محدوداً لأنه يقتصر إجمالا فى العديد من البلدان على العقاقير بما فيها المهدئات العصبية والأدوية المضادة للعدوانية.

وهذا هو الحال فى دول العالم الثالث حيث لا توجد برامج علاجيه متكاملة. أما فى الدول المتقدمة وبالأخص الولايات المتحدة

الأمريكية، هناك محاولات عليمة وبرامج علاجية لا تعتمد فقط على العقاقير بل أيضا على العلاج النفسى وعلى دور الأهل والمدرسة.

إن وضع الأطفال المذكورين معقد من حيث تشابك العوامل والضغوط، فهم يشعرون بالنبذ من جانب الأهل والمدرسين والرفاق، الأمر الذى يدفع بهم إلى المزيد من العدوانية والعنف، إذن هناك حاجة ماسة إلى توفير الخدمات النفسيه والتربوية لهؤلاء الأطفال حتى يتسنى لهم تعلم المهارات الاجتماعية والأكاديمية التى سوف تساعدهم على ضبط انفعالاتهم والتعامل مع الآخرين.

وعلى هذا الأساس، قام علماء النفس بوضع برامج تدريبية بعضها مخصص للأهل والبعض الآخر للأطفال، وترمى برامج الأطفال إلى تحقيق بعض الأهداف:

- اكتساب المهارات السلوكية والاجتماعية بما فى ذلك المهارة فى اللعب والكلام والعلاقة مع الآخرين. الأبتسامة وإلقاء التحية والتعاون .
- اكتساب المهارات المعرفية والقدرة على حل المشكلات المطروحة وكيفية مواجهة الصعاب، من خلال حديث الذات للذات مع اتباع بعض التعليمات الأساسية التى تساعد على ضبط الغضب والانفعال، لذا وجد علماء النفس أن البرامج العلاجية يجب أن ترمى إلى تدريب الأهل على حسن التصرف بحيث يتعلمون كيف يعدلون سلوكهم ويتعاملون مع أبنائهم والحوار معهم.

يبدأ البرامج بأن يقرأ الأهل كراساً خاصًا يؤهلهم لتعلم المهارات الاجتماعية وكيفية التعامل مع الطفل. فى المرحلة الثانية، يتم تدريب الأهل على استعمال تقنيات التعزيز مثل المدح والتشجيع. وفى المرحلة الثالثة يتبع الأهل الطرق التربوية المناسبة للتعامل مع الطفل وفى المرحلة الأخيرة يتم تعلم بعض التقنيات لمراقبة سلوك الطفل. إذ على الأهل أن يعرفوا متى ترك ابنهم البيت ومتى رجع ومتى كان يلعب أو ماذا فعل وأن يستعلموا بذلك أسلوب التفاوض والحوار وليس طريقة الاستجواب والتأديب والعقاب.

وبناء على ما سبق عرضة يتضح لنا مدى أهمية دور الوالدين والإخوة والمدرسة والبيئة والظروف المحيطة فى تشكيل سلوك الطفل سلباً و إيجاباً.